الآداب
المجلد: 25، العدد: 01، ديسمبر 2025
الصفحات: 382 – 395
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

سردية الفناء والبقاء، مقاربة سيميائية في قصيدة (مسافرون) لنزار قباني

The Narrative of Death and Survival: A semiotic Approach of Nizar Qabbani's Poem "Travelers"

د. براق نسيمة [1]

[1] جامعة محمد لمين دباغين سطيف2- الجزائر، n.berrag@univ-setif2.dz

تاريخ الإرسال: 2025/08/14 تاريخ القبول: 2025/11/28 تاريخ النشر: 2025/12/11

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى استجلاء دلالات العلامة اللغوية في قصيدة(مسافرون) للشاعر نزار قباني، حيث حكى فيها عن الحال البائس الذي يعيشه وطنه بلغة رمزية تصوِّر الموت الذي يُخيِّم على واقعه، والذي يتمظهر من خلال الثنائية الضدية الموت/ الحياة.

تأتي المقاربة السيميائية كرهان منهجي يغوص بنا إلى عمق الخطاب، ويبرز إشعاعية الإشارة بمجموع المدلولات المتضمنة والتي تحمل رؤية الشاعر وموقفه، فتوضح المفارقة بين الحلم والواقع، بين السعادة والشقاء، كما تؤكد على استحالة تأسيس قيم إيجابية تنهض بالحياة في ظل الخضوع، الضياع مقابل الحضور، الاغتراب مقابل الانتماء.

كلمات مفتاحية: *موت؛ قصيدة؛ مقاربة؛ سيميائية؛ علامة.*

Abstract:

This research aims to clarify the meanings of the linguistic sign in the poem *"Travelers"* by the poet Nizar Qabbani, in which he depicts his homeland's miserable state through symbolic language that suggests death overshadows reality, represented by the duality of death and life. The semiotic approach serves as a methodological framework for exploring discourse in depth, highlighting the power of the sign through all its included meanings, which reflect the poet's vision and perspective. It clarifies the contrast between dream and reality, happiness and suffering, and stresses the difficulty of establishing positive values that can sustain life under conditions of oppression, loss versus presence, and alienation versus
belonging.

Keywords: *Death; poem; approach; semiotics; sign.*

المؤلف المراسل: براق نسيمة.

مقدمة:

قصيدة (لماذا يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الإنسان؟)[1] أو كما يطلق عليها(مسافرون) للشاعر السوري نزار قباني* ألقاها في مهرجان المربد الخامس في بغداد عام 1985م. وقد كسرت القصيدة أفق توقع الحاضرين في المهرجان فلم تأت في غرض مديح للعراق كغيرها من القصائد التي عُرضت في المهرجان، بل جاءت لتفضح الحقيقة المعاشة. أحدثت القصيدة ضجة كبيرة داخل الأوساط الأدبية لجرأتها في حينها، وتم التعتيم والتشويش عليها وتهميشها بحكم أنها تتهم السلطة الحاكمة، ومن ثمة مُنعت من الصدور على الصحف والقنوات، فهي قصيدة استشرافية تحمل رؤية الشاعر بعد قراءته الحاذقة والمتأنية لملامح واقعه الذي يشرف على النهاية.

ليس صحيحا ما يقال عن الأدب أنه خُلِق للإمتاع وتصوير الواقع فحسب، بل من وظائفه أيضا بث الأمل في الحياة، التنديد بالظلم الممارس، وإعلاء كلمة الحق، والشاعر واحد من أفراد الأمة يحمل همومها ويحل قضاياها، وفي هذه القصيدة يرسم بلغة رمزية ملامح الموت الذي يخيِّم على الوطن والذي يجري بناء مفهومه على طول مسار القصيدة بأسلوب يستفزّ القارئ وينبِّه الوعي للتفكير في حال الأمة البائس.

إن القصيدة تكتب الموت وتحكي تاريخ الوطن من خلال قاموس لغوي مختار بعناية وبجمل فعلية، حيث تتتابع الأحداث وتتصاعد المشاهد لتصل إلى الذروة بطريقة كتابةٍ يمكن أن نطلق عليها التسريد**، فما هي دلالات الإشارات في هذا الخطاب؟ وما هو حظ هذه القصيدة من السرد؟ وما هي الحقائق التي نطقت بها ورأتها رؤية العين؟ كيف تكتب الذات موتها قبل الموت عبر مختلف المشاهد السردية؟ وما هي التقنيات الفنية والأساليب السردية التي كُتِب بها الخطاب؟

يسعى هذا البحث إلى مقاربة القصيدة بمنهج سيميائي يدرس العلامة اللغوية بدلالاتها الرمزية، كما يهدف إلى إيضاح التواشج الملاحظ بين الخطاب الشعري والخطاب السردي، وكذا الكتابة الفلسفية للموت في النص الفني.

1- رهان المنهج السيميائي في دراسة الخطاب الأدبي

لا ريب أن الحركة النقدية توازي العمل الفني في تطوره، وتسعى إلى مواكبته نظرا للعلاقة التكاملية بينهما، ونحن نشهد كل حين انفتاح المناهج النقدية على مختلف النصوص قراءة وتحليلا باستعمال تقنيات معاصرة متجددة باستمرار.

يأتي المنهج السيميائي كأبرز الآليات التي تدرس الإشارة اللغوية، فيبحث في الدلالة الرمزية لمختلف الثنائيات المتضادة، والعلامات اللغوية المشكلة لنسيج النص، وكذا العلاقات الرابطة بينها، فالسيميائية منهج يهتم بدراسة حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية ويحيلنا إلى معرفة كنه هذه الدلائل وعلتها وكينونتها ومجمل القواعد التي تحكمها[2]، وإذا كانت لغة الأدب تُعدّ أرفع مستوى للغة إذ يسميها البعض لغة فوق اللغة، فإن فهم مضمون النص يتوقف عندئذ على القدرة على الكشف عما تحويه هذه اللغة بوصفها إشارة من دلالات عميقة هدفها خلق نوع من النشاط الروحي لدى القارئ[3]، ومن ثمة تأتي السيميائية في مستوى هذا الرهان؛ قادرة كمنهج على استكناه المعاني، وتعدُّ أنسب المناهج لدراسة الرمز في النص الفني، باعتبار أن الرمز يشغل في الشعر مساحة واسعة ويمتلك طاقة إيحائية كثيفة يُبرِز من خلاله الشاعر رؤيته الخاصة للوجود.

يمكن أن نلخص المفاهيم التي تؤسس لهذه الدراسة فيما يلي:

- تركز السيميائية على دراسة الدال والمدلول، وكيفية إنتاج المعنى وتفسيره.
- التحليل المحايث للنص يبحث في العلاقات بين مكونات النص بمعزل عن السياقات الخارجة عنه.
- تتقاطع السيميائية باعتبارها منهجا نقديا إجرائيا بمناهج أخرى بحكم أنها تبحث في العلامة اللغوية من مثل البنيوية، التأويل، وتتجه اتجاهات معرفية مختلفة حيث تدرس النص باعتباره خطابا موجها يستدعي تحليلا خاصا على نحو ما فنجد: سيمياء الإشهار، سيمياء الدلالة، سيمياء التواصل، سيمياء الثقافة، سيمياء الشعر، سيمياء السرد.

ومن بين الأدوات الإجرائية التي تهتم بدراسة الإشارة نتحدث عن المربع السيميائي الذي وضعه السيميائي الروسي جوليان غريماس في حقل السيميائيات السردية، ويعتبر تقنية فعالة في التحليل تبحث في الوحدات اللغوية المتقابلة داخل النصوص والتي تعكس الممارسات الاجتماعية والأفكار التي أنتجتها.

رأى أن دراسة النص الفني لابد أن تتم على مستويين؛ سطحي وعميق، و"أن المعنى يقوم على أساس اختلافي، لا يتحدد إلا عن طريق مقابلته بضده وفق علاقة ثنائية متقابلة، وصاغ أفكاره هذه من خلال ما أسماه المربع السيميائي"[4]، الذي يساعد على تمثيل علاقات التضاد والتناقض الظاهرة على مستوى النص

وهي علاقات تقوم على الدلالة المنطقية وتعكس البنية العميقة للنص بالكشف عن الدلالات المضمرة[5]، مع الإشارة إلى الاهتمام بالعلاقات التي تكمن في تراكيب الجمل والوظائف التي تؤديها.

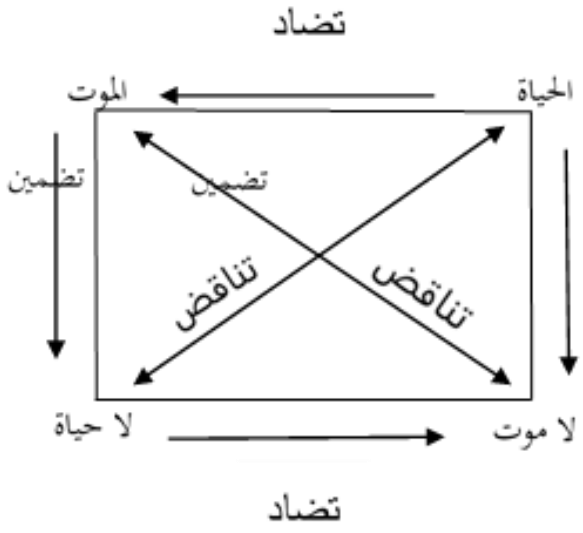
2- الدراسة السيميائية للقصيدة

2-1 سيميائية العنوان

يُعدّ العنوان المفتاح الأول الذي نلِج النص من خلاله وهو بمثابة المبتدإ، بينما النص يكون الخبر الذي يخبرنا عنه، وبين العنوان والنص علاقة تفاعلية، أي أن العنوان يأتي ملخصا لمضمون النص ومتضمنا لموضوعه بطريقة رمزية مقتضبة، بينما النص يأتي تتِمة للعنوان وتمطيطا له عبر التوسيع فيه وتقليبه في صيغ مختلفة[6]، من خلال الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن لأول وهلة عند قراءته، والعنوان هو أول ما تقع عليه عين القارئ فيستدرج انتباهه وتفكيره، لاسيما إذا كان استفهاما كما هو الحال في هذا النص الشعري.

اختار نزار لقصيدته هذا العنوان (**لماذا يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الإنسان؟**) لجذب انتباه القارئ بغية التفكير معه في قضية(الاستبداد)، حيث يراها الشاعر سببا رئيسا في تخلف المجتمعات العربية وتجرعها مرارة المآسي والموت. يتصدر الشاعر قصيدته بألفاظ تحمل دلالات سلبية يعبر مجموعها عن تيمة الموت، حيث اختار كلمة (يسقط) الدالة على الانهزام، الاندثار، الفشل وعلى الاستمرارية في الحدوث والتكرار باعتبارها فعلا يدل على الحركة في الحاضر والمستقبل، وكُنية (متعب بن تعبان) تبدو نكرة في ظاهرها لكنها تتحول في سياق التعبير النصي والتاريخي إلى كنية معروفة بدلالتها التي تحيل إلى الضعف والنكسة، هي نكسة متوارثة أبا عن جدٍّ جراء الخيبات والانكسارات المتتالية، تحولت إلى مرض نفسي يحول دون نجاح صاحبه فيسلبه العيش الهني، ويضع عبارة(حقوق الإنسان) موضع امتحان لأن وجود الذات في الحياة رهين بامتلاكها لحقوق الحياة فيها وسلب هذه الحقوق منها معناه موتها، والحياة امتحان لإثبات الذات بجميع تمثُّلاتها، فإذا فشل الإنسان في المطالبة بحقوقه معناه أنه يُزاح إلى هامش الحياة، فإما يكون أو لا يكون. فإذا جئنا للعلاقات التركيبية التي ترتبط بها هذه الكلمات رأينا أن الفاعل(متعب) يرتبط بالفعل(يسقط) بعلاقة الفاعلية أي أنه يمارس السقوط والتلاشي بفعل صفة التعب اللصيقة به، بينما ترتبط الجملة الفعلية(يسقط متعب بن تعبان) بالجملة(في امتحان حقوق الإنسان) ارتباط الظرفية أي الظرف الذي يتم فيه الفعل، هذه العناصر اللغوية تبتدئ بأداة استفهام(لماذا) وتنتهي بعلامة الاستفهام(؟) الذي يعبر عن المشكلة التي تجسد حيرة الشاعر في واقعه المهدَّد بالموت من كل النواحي فيدعونا للتفكير

معه عن أسبابه والحلول لأزماته، وكيف السبيل للبقاء. فالعنوان من هذا المنطلق يكون همزة وصل بين النص والقارئ، تعطى بعده الحرية للقارئ لمحاورة النص واستنطاقه بالنفوذ إلى بنيته العميقة وإعادة كتابته، هذه الولادة الجديدة للنص تعبر عن وعي عميق بما يقوله وللغة دورها الفعال في التغيير. من ثمة يمكننا استخلاص الثنائية العامة التي تؤطر مضمون النص والتي تشكل بنيته العميقة، وهي الثنائية الضدية الحياة/ الموت، يمكن تلخيصها بالمربع السيميائي لغريماس؛ فله القدرة على كشف المعاني والدلالات المستترة في النص الأدبي والتي لم تُذكر صراحة، كما يوضحه المخطط1 الآتي:



المخطط1

ويمكننا شرح هذه العلاقات كما يلي:

أ- علاقة التضاد: نجدها بين (الحياة والموت) وبين (لا موت ولا حياة)

ب- علاقة التضمين: نجدها بين (الحياة ولاموت) أي أن اللاموت متضمَّن في الحياة، وكذلك الموت يقتضي اللاحياة.

ج- علاقة التناقض بين عنصر الموت (الضد) ونفي ضده (لاموت)، وكذلك بين الحياة ونفيه (لاحياة).

حيث تتجه الحياة إلى الموت بفعل تغييب تام لمقومات الحياة. وتتجه إلى اللاحياة بعلاقة التناقض بفعل أن الإنسان يحيا على أرض الوطن غير أنه يعاني من الحرمان من حقوقه المدنية فيه، من النفي والتهميش.

بينما يرتبط الموت بالنفي (لا موت) بعلاقة تناقض على أساس أنه غير متحقق كليا في القصيدة، بل جزئيا، أي في طريقه إلى الوجود الواقعي بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فإذا نظرنا إلى الاتجاه المعاكس من الموت ⟸ الحياة، يرى الشاعر أن تحقق الحياة الحقيقية في مقابل الموت أو إحياؤها من جديد رهين بالصراع من أجل البقاء، برفض العبودية، بالكفاح من أجل انتزاع الحقوق المسلوبة من مغتصبها، بتظافر الجهود لأجل استعادة هذا الشعب لحريته وحقه في الحياة. وهي الدلالة المتضمنة في الاستفهام الذي استهل به الشاعر قصيدته، فهذه مهمات واجبة تعيد الحياة من جديد إلى أرض أصابها القحط يشرف أهلها على الهلاك جرّاء جروح الزمن التي يتعاظم نزيفها يوما بعد يوم.

2-2 سيميائية المكان:

يهتم هذا الإجراء التحليلي بفضاء المكان، حيث هو الإطار الذي تتحقق فيه الحياة أو تنمحي، ولطالما ثارت حوله النزاعات والحروب، من أجل الوطن المكان الذي يحفظ للإنسان كرامته ويحقق فيه ذاته، وفي القصيدة نلمح أسماء لأمكنة كثيرة، يرمز كل منها لأحداث تاريخية تمتد إلى زمن بعيد وتعبر عن الثورات التي قامت في تلك الأمكنة وحجم الأرواح التي حُصدت فيها(عدن، طنجة، كربلاء)، فمن جهة تمتاز هذه الأوطان باستراتيجية المكان وخصبه(عدن في بلاد اليمن، وطنجة في بلاد المغرب) ولهذا تعاقبت عليها عهود الاستعمار فهي تشكل الجانب المشرق من حضارتنا، ومن جهة ثانية تعد محل نزاعات دائمة فقد اعتبروا كربلاء مثلا هي أرض الكرب والبلاء المكان الذي شهد فتنا وحروبا كثيرة منذ زمن الحسين بن علي والصراع حول الخلافة، ولهذا يقول نزار أن تلك الحقبة التاريخية المريرة التي حلت بالأمة العربية تعد منعطفا حاسما غير مجرى التفكير، وبدّل العلاقات بين بعض الشعوب العربية التي تحولت فيما بعد إلى تناحرات ومعارضات، توارثتها الأجيال كنقطة سوداء ومشكلة سياسية عالقة لم تُحل تطرح نفسها في كل الملفات السياسية، وتحمل تبعاتها إلى كل شعب عاش أجداده هناك، وتتسبب في عذابه ومعاناته، فيقول:

مواطنون نحن في مدائن البكاء | حنطتنا معجونة بلحم كربلاء | صيامنا..صلاتنا..زهورنا..قبورنا
قهوتنا مصنوعة من دم كربلاء | طعامنا، شرابنا عاداتنا..راياتنا | جلودنا مختومة بختم كربلاء..[7]

يشكل المكان في النص في المقاطع **فضاء مغلقا**، حينما يعتبر الشاعر الوطن سجنا يتّسم بتقييد الحريات يبدو ذلك من خلال عبارات عديدة من مثل (معتقلون، مراقبون في المقهى، في البيت، في أرحام أمهاتنا). بينما يبدو **فضاء مفتوحا** في تجليات أخرى حينما يصبح الوطن مكانا للإحساس بالاغتراب والضياع

وعدم الاطمئنان، وعدم الاحساس بالأمان يتوجس فيه المواطن كل لحظة خوفا من مكيدة قد تلحق به من أي اتجاه، كما يتجلى هذا الفضاء المفتوح في لفظة البحر الذي ألقى فيه المهاجرون أنفسهم فرارا من سجن الوطن بحثا عن أرض أخرى وهمية كما نعتها الشاعر، وهنا يتحول البحر إلى فضاء للضياع من خلال هذه العبارات: (مهاجرون نحن من مرافئ التعب.. من بحر بيروت.. إلى بحر العرب)، (مسافرون في سفينة الأحزان. مكومون داخل الأقفاص كالجرذان لا مرفأ يقبلنا.. مسافرون ضيعوا أسماءهم ضيعوا انتماءهم ضيعوا الإحساس بالأمان). كما يمكن أن نلمح **إزاحة دلالية** لعلامة الوطن، فبعد أن كان يمثل قيمة عليا إيجابية، حيث يجسد الأمان والانتماء يتحول إلى دلالة سلبية حينما نعته الشاعر بقوله (يفتشون..عن كذبة كبيرة كبيرة تدعى الوطن) مع التأكيد على معنى الكذب من خلال تكرار النعت المفردة، وتفسير ذلك أن هذه الدلالات تتباين كل لحظة تماشيا مع السياق النفسي للشاعر الذي يطبع العالم المحيط بانطباع نفسي يُعَدُّ ترجمة لحالة شعورية وجودية تستنجد بالقريب قبل البعيد وهي توشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة من وطأة المعاناة واليأس الذي تمكّن منها.

2-3 سيميائية الزمان

بين الزمان والمكان علاقة تكاملية فلا وجود لأحدهما دون الآخر، وللزمن دلالات تساعد القارئ في فهم النص الأدبي، وبناء على ذلك فقد ارتبط توظيف الزمن بتقنيات وآليات لها دورها الفعال في حركية الأحداث وخلق الانفعال وجعل المتلقي يتتبع النص الإبداعي من بدايته إلى نهايته.

الزمن في القصيدة يمتد من واقعة كربلاء التي شهدت أحداثا دامية إلى زمن الشاعر، ويتأرجح بين زمنين؛ زمن حقيقي يحكي فيه الشاعر أحداث واقعه، وزمن نفسي يعبر عن امتداد الشعور من الماضي إلى الحاضر، حين يسرد من خلال رموز تاريخية تتبعناها في سيمياء المكان قصة الوطن الذي لا يكاد يشفى من نكسة حتى تزعزعه صدمة أخرى (مطاردون كالعصافير على خرائط الزمن)، وحيث تحولت هذه الصدمات إلى عقد نفسية تمثلت في لباس الناس لطوق الخوف والرعب، الاستسلام والخنوع.

كما نلاحظ أن زمن القصيدة هو زمن دينامي حركي متردد ينتقل فيه الشاعر من الحاضر بوصف دقيق لما يحدث فيه من أزمات، ثم العودة إلى الماضي الذي يمتد إلى الحاضر بكل ثقله الحضاري ومشاكله من خلال تقنية **الاسترجاع** (flash back)، وعملية الاسترجاع هذه لرموز الماضي لها وظيفتين في عالم النص، فهي من جهة تقدم تفسيرا مقنعا عن الحال التي آل إليها الوطن زمن الشاعر، ومن جهة ثانية قد تُذكّر

ليأخذ الناس العبرة منها، فتوقظ الوعي بضرورة تجاوز الماضي بكل أحداثه المحزنة فلا نحتفظ منه بغير صفحاته المشرقة، ثم هو بعد ذلك زمن **استشرافي** لأحداث سوف تقع، رأى فيه الشاعر بعمق بصيرته الإرهاصات الأولى لمستقبل الشعوب العربية، فكتب القصيدة يحذر فيها مما يخشى وقوعه فعليا قبل زمن الحدوث بسنوات عديدة. عبر عنه الشاعر بعبارة (مسافرون في سفينة الأحزان)، هذا السفر الرمزي لا يعني الانتقال من مكان إلى آخر بينما هو انتقال خارج الزمان والمكان، حيث يكون الموت، مع الإشارة إلى أن هذا السفر المحاط بهالة من الحزن مرجعه إلى كونه مَحَا كلّ الذكريات والصلات التي يمتُّ بها هذا الشعب إلى أرضه إلى تاريخه (زمن الحياة الكريمة)، حيث سُلب أوراقه وهويته، وحيث تنكرت له كل الشعوب وهو يبحث عن الخلاص من الشقاء بين ظهرانيها، وبهذا التردد الزمني بين الحاضر والماضي والمستقبل يتخلى الزمن عن تسلسله المنطقي ويتّسم هنا بالتداخل والدائرية الأمر الذي يخلق نوعا من الإثارة لدى المتلقي.

2-4 سيميائية الشخصيات

القصيدة مشحونة بعدد كبير من الشخصيات والأسماء؛ شخصيات من التاريخ الماضي، وشخصيات تعيش الحاضر (زمن الشاعر)، وشخصيات أخرى رمزية. ذلك لأن القضية المطروحة في نص القصيدة هي قضية تخبّط الإنسان بين الحياة والموت، ولهذا السبب يرجع الشاعر بذاكرته إلى الزمن الأول الذي بدأت منه أزمة الإنسان، فالرعيل الأول الذي يمتد إليه أصل الشاعر امتاز برفعة النسب والأخلاق، من أمثال قبيلة (مضر) التي ينحدر منها الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق، وبني ثقيف من أعرق القبائل العربية، ولا يخفى على أحد الأمجاد والبطولات ومكارم الأخلاق التي امتاز بها العرب آنئذ. ثم تلاه رعيل آخر زمن الفتوحات ومن الأسماء التي عاشت تنتمي إلى ذلك الرعيل (أبو الطيب المتنبي، أبو العتاهية، الفاطميون، المماليك، البرامكة، القرامطة)، وبالرغم مما امتازت به من أمجاد إلا أنها شهدت العديد من الفتن والانقسامات والتحزبات، وأثرت سلبا على نمط تفكيرها وسلوكها. فهذه تشكل شخصيات فاعلة إيجابية في عالم النص، بينما أهل الشاعر شخصيات تعكس واقعا يعاني الانحطاط، وحيث تعاظمت مشكلاتها واستعصت على الحل، فقد وصفها الشاعر بما يلي:(مواطنون دونما وطن ولا هوية، معتقلون، مسلوبي الحرية، مطرودون من الوطن ومقتلعون كالأشجار من أماكنها، منبوذون من الجميع عربا وغربا، يعانون الخوف والتمزق واستبداد الحكام فيعاملونهم معاملة الرق)، فلا أحد وقف معهم في قضيتهم، ولا أحد استضافهم في وطنه، فكانت النتيجة كما يتوقعها النص الشعري أن سقطوا في براثن الغرق، والبرد،

الجوع، والمرض، وكلها مآلها الموت. وكأن التاريخ الأسود زمن الفتن يعيد نفسه مع كل أمة تنهض للمطالبة بحقوقها، ويتنكر بالمقابل للتاريخ المجيد الذي كان صفحات مشرقة في تاريخ حضارتنا. وعلى مسار القصيدة يحكي الشاعر كل المساعي التي قام بها هذا الشعب للخروج من ظلمات قهر الحكام إلى النور حيث: بحثوا عن أوطان أخرى تأويهم (نبحث عن قبيلة تقبلنا..عن عائلة تعيلنا..عن سكن) ولم يجدوا (فلا الذين يشربون النفط يعرفوننا. ولا الذين يشربون الدمع والشقاء)، استنجدوا بالحماة والمحامين لكنهم لم ينصفوهم، فعامل الكراهية الذي عم وطنهم بين متحزب ومعارض ومتسلط أودى بهم إلى هذا المصير المشؤوم، ولايزال يمتد إلى أوطان أخرى مادامت تنحو الطريق نفسه في الحياة. ولهذا السبب حذر الشاعر من عواقب ما يراه يحدث يوما بعد يوم من أزمات تنخر عميقا في جسد الأمة.

ويشكل الوطن شخصية رمزية يخاطبها الشاعر بقوله (يا وطني) فيستدعي انتباهه موجها كلامه إلى من يسكن الوطن من شعب وحكام، فالشاعر يقف متأسفا يتحدث بنبرة حزينة عن حال الوطن غاضبا منددا بكل الإكراهات والمعاناة التي يعيشها شعبه، ومظاهر الموت التي تكبر يوما بعد يوم في واقعه.

2-5 سيميائية اللغة

تكتب الذات الشاعرة الموت من خلال معجم كلمات تندرج في مجموعها ضمن الثنائية الضدية(الموت/الحياة)، فالموت باعتباره حدثا ثابتا منته عبّر عنه بجمل وصفية اسمية من مثل:

يا كرة النار تسير نحو الهاوية	**مهجرون من أمانينا وذكرياتنا**
يا وطني المكسور مثل عشبة الخريف	**مسافرون خارج الزمان والمكان**
مقتلعون نحن كالأشجار من مكاننا	

بينما معنى السعي من أجل الحياة تجسد في مجموع الأفعال المضارعة الدالة على الحركة والاستمرارية حيث يقول:

نركض كالكلاب كل ليلة... نبحث عن قبيلة تقبلنا	**عن عائلة تعيننا.. وعن سكن**

***

إذا تظلمنا إلى حامي الحمى	**غيروا الموضوع**
قيل لنا ممنوع	**يا وطني كل العصافير لها منازل**
وإن طلبنا قلما لنكتب الوصية الأخيرة	**إلا العصافير التي تحترف الحرية**
قبيل أن نموت شنقا	**فهي تموت خارج الاوطان**

إلى جانب اللغة التي اختارها الشاعر ليعبر بها عن هذه الجدلية، نلمح أيضا الأسلوب الإنشائي في لغته يبرز من جهة حيرة الشاعر تجاه واقعه التي تبدو من خلال الاستفهام الذي شكل عنوان القصيدة، فيدعونا من جهة ثانية بأسلوب النداء إلى التفكير في حال الوطن والنهوض لأجل نفض الذل عنه، حيث يستعطف القارئ حينما يضعه في موقف المتفرج على كل ما يحدث من أحداث ومشاهد محزنة يقول:

يا وطني المصلوب فوق حائط الكراهية — زجاجة من دمه.
يا كرة النار التي تسير نحو الهاوية — لا أحد.. على امتداد هذه العباءة المرقعة..
لا أحد من مضر..أو من بني ثقيف — أهداك يوما معطفا أو قبعة..
أعطى لهذا الوطن الغارق بالنزيف — يا وطني المكسور مثل عشبة الخريف..

ومن جهة ثالثة علامة الموت متصلة بالنفي المتكرر في القصيدة، النفي بـ(لا النافية للجنس) التي تنفي جنس خبرها عن جنس اسمها، ومن ثمة تنفي العلاقة بين الاسم والخبر نفيا تاما، هو نفي من التاريخ فشتان بين عرب الماضي الذين أناروا الدنيا بعلومهم وخلدوا أسماءهم بحروف من ذهب، وبين عرب النكسة وما لحقها من تقهقر وخنوع، حتى الشاعر نفاهم من الانتساب للسلف الأول لأنهم اختلفوا عنه أخلاقا وسلوكا. وهناك النفي من الوطن، فحدث أن أصبح المواطن في وطنه يحيا وجودا عبثيا على هامش الحياة تتقاذفه رياح الخيانة والمكائد فيصارع أمواجا عاتية على امتداد بحار الموت.

لا أحد يعرفنا في هذه الصحراء — أعطى لهذا الوطن الغارق بالنزيف. — مهاجرون نحن من مرافئ التعب
لا نخلة..لا ناقة..لا هند..لا عفراء — زجاجة من دمه..أو بوله الشريف!! — لا المماليك.. ولا البرامكة
فلا الذين يشربون النفط يعرفوننا — لا أحد على امتداد هذه العباءة المرقعة — لا أحد يريدنا ..لا أحد يقرؤنا
ولا الذين يشربون الدمع والشقاء.. — أهداك يوما معطفا أو قبعة.. — كل الكتابات التي نكتبها
لا أحد من مضر..أو من بني ثقيف — لا أبو الطيب يستضيفنا.. — لا تعجب السلطان..

يغلب أسلوب النفي الدال على اللامبالاة وعدم الاكتراث فلا أحد اهتم بقضية هذا الوطن، ولا أحد سارع إلى نجدة أهله المنكوبين، يعبر عنه بعبارات(لا أحد يعرفنا، لا أحد أعطى للوطن المنكوب زجاجة من دمه)، فالدم يرمز إلى العِرق(العرب ككل)، عرق تنصّل من واجبه تجاه أهل الوطن المغدور، (ولا أحد أعطى لهذا الوطن على امتداد عباءة مرقعة معطفا أو قبعة)، فالعباءة كانت لباس العرب منذ الرعيل الأول الذي فرض وجوده سياسيا وثقافيا، والعباءة ترمز إلى الحماية لكنها أصبحت مرقعة بفعل الخروقات التي

حدثت فيها، هذه الخروقات هي الأزمات التي حلت بالعرب على امتداد التاريخ، فالعباءة التي كانت لباس الرعيل الأول تلاشت وانتهى زمنها، ولا أحد من الجيل الجديد قدم بدلها معطفا بلغة العصر الحديثة، فالمعطف والقبعة(الدالة على الرفعة وعلى الأنفة والعزة) هي اللباس الذي يلبسه العربي المعاصر في معظم الدول العربية من منطلق التبعية الثقافية الغربية إلا في دول الحجاز والخليج، كما تشير إلى الغرب في سياق النص، فلا أحد من هؤلاء عربا وغربا مدّ يد العون للشعب المجروح، فكانت النتيجة أن اتضحت الصورة جلية للشاعر بأن أهل وطنه قوم لا حقّ لهم في الحياة على الرغم من سعيهم من أجل البقاء. غير أن الشاعر يحاول أن يثبت عكس ذلك فيقول: **معتقلون.. داخل الحزن، وأحلى ما بنا أحزاننا**

حيث يتحول الحزن هنا إلى إشارة مؤكدة للهوية التي تحيا في حزن، والحزن يؤكد على انتمائها رغم أنه وجود بائس، كما يدلل على أن رفض الواقع بكل قيوده وحيثياته إثبات على الهوية التي يُراد تغييبها.

زِد على ذلك الجمل التعجبية التي تشير إلى ملامح الذل التي وصف بها الشاعر قومه أو العرب عامة جراء تخليهم عن وحدتهم وتردد صورتهم الانهزامية في معظم دولهم. فهذه الأساليب على تعددها وتنوعها أدت وظائف محددة في النص الشعري وساهمت في تبليغ رسالة الشاعر إلى القارئ، حيث حاول وضعه في إطار قضية الوطن بل الأمة ككل، قضية كبرى تستلزم تظافر الجهود لإصلاح أحوالها وإنقاذها من الضياع.

والقصيدة معاصرة شعر حر تتسم بوحدة الموضوع، حيث تتناول قضية الوطن الممزق الذي يشرف على الموت، وسعي الشاعر بقلمه لنجدته من خلال الدعوة الضمنية لكل من يقرأ قصيدته إلى مساندة أهله ونصرته، والدفاع من أجل استرداد الحق المغتصب، ثم ينوِّه بأنها قضية أمة بأكملها ليست قضية وطن واحد فحسب. فتبدو الأبيات الشعرية مترابطة باستخدام حروف العطف (الواو، الفاء) عند بداية الأشطر بشكل ملفت للانتباه تتكرر في كل المقاطع، كما يتكرر النفي بحرف(لا) في كل مقاطع القصيدة وبتكرار بعض العبارات من مثل (لا أحد) في عدد من السياقات، وكلمة(مسافرون) التي وردت بلفظها في بداية القصيدة، وردت في شكل جمل فعلية واسمية في مواضع أخرى يقول:

مسافرون نحن في سفينة الأحزان | مسافرون خارج الزمان والمكان

وتعرض الكلمة (مسافرون) بعبارات تتضمن وقوع الحدث من مثل:

نركض كالكلاب كل ليلة..نبحث عن قبيلة تقبلنا | مهاجرون نحن من مرافئ التعب.. لا أحد يريدنا
نبحث عن عائلة تعيلنا.. وعن سكن.. | من بحر بيروت.. إلى بحر العرب..

كما نلمح في لغة القصيدة أيقونات هي نقاط تنتهي بها معظم أبيات القصيدة، هذه النقاط تمثل علامات حذف في بعض الصيغ؛ كما نقرأ وجودها في هذه العبارة:

مراقبون نحن في المقهى.. وفي البيت.. وفي أرحام أمهاتنا..

فالشاعر يعبر عن الاستلاب القاسي لحريته بأبلغ التشكيلات الخطابية، فهو مراقب في كل الأماكن التي يتحرك فيها ليس فقط في المقهى والبيت والرحم، وليس له الحق في أن يفعل ما يريد.

وفي صيغ أخرى تأتي دالة على اتساع فضاء الحدث، كما يتجلى في قوله:

مهاجرون نحن من مرافئ التعب.. لا أحد يريدنا.. من بحر بيروت.. إلى بحر العرب..

فالمدلول الذي تشير إليه هذه الأيقونات هو تلك الفسحة الزمنية التي تمنح للقارئ ليسأل أو يجيب في صمت عما يطرحه الشاعر في خطابه من أفكار تستدعي وجهة نظر المتلقي ليُعيد كتابته كقوله:

وهم يفتشون في المعاجم القديمة.. عن جنة نضيرة | عن كذبة كبيرة كبيرة.. تدعى الوطن..

فالشاعر يتساءل في ظل هذه الظروف المريبة، هل كلمة الوطن هي معنى متحقق واقعي يستحق أن نتحدث عنه، أم أنه مجرد كذبة تحصد آلاف الأرواح على مر العصور وسراب يبتعد كلما حاولنا الاقتراب منه فيزداد غموضا وتخفيا.

ونقاط الحذف تقنية سردية نجدها في النص الروائي، وهي دالة على صوت القارئ المحذوف ولكن الموجود ضمنيا مقابل صوت الشاعر الحاضر، فكأن الخطاب الشعري يشكل حوارا على طول مقاطع القصيدة بين الشاعر والقارئ وهذا ما نطلق عليه تسريد القصيدة، كما نجد ملامح الخطاب السردي واضحة في قصيدة نزار من سرد لمجموع أحداث وقعت في الماضي ويتنبأ بما سيحدث للأجيال الصاعدة في المستقبل، يتجسد هذا السرد في بروز صوت الشاعر/الراوي في الحكي بضمير المتكلم(نحن، الياء المتصلة)، تتابع الأحداث في شكل مشاهد سردية بجمل فعلية، وأحيانا بجمل اسمية وصفيه للحال التي ينتهي إليها الشعب وهو يتنقل من مكان إلى آخر، تتابع الأقوال، مع الإشارة إلى ذكر الشخصيات والمكان والزمان.

الخاتمة:

ختاما لهذه القراءة يمكن أن نسجل النتائج الآتية:

- ✓ يأتي نص القصيدة مجيبا عن السؤال الذي كان عنوانها، أي أن الشاعر شخّص أسباب الضعف والهزيمة والتي تعتبر مشكلات وجودية لها امتدادها الزمني إلى الماضي، ومن ثمة فالخطاب يدعونا

للتفكير في تأسيس جديد للأمة العربية، وبناء مجتمعاتها على نحو تتخلى فيه عن عاداتها السيئة في الحياة. والنص يمتلئ بالفراغات البيضاء تنتظر أن يملأها القراء برؤاهم.

- ✓ أبدع الشاعر في نظم قصيدة بلغة رمزية بيانية زاوج فيها بين الخطاب الشعري والسردي حيث تتماهى فيها الحدود بين النوعين وهي خاصية تميز القصيدة الشعرية المعاصرة، مراعيا بذلك جانبين في الكتابة؛ جانب جمالي تحققه بلاغة التركيب والبناء، وجانب وظيفي يختص بمقاصد الشاعر ورؤيته التي أراد أن يبثها وسط الجمهور المستمع والقارئ.
- ✓ كل نص أدبي يختار منهجه المناسب لدراسته بحسب اللغة الفنية التي يُكتب بها، ولا شك أن المنهج السيميائي واحد من أهم المناهج النقدية المعاصرة القادرة على النفوذ إلى البنية العميقة له، يدرس الرمز بعديد الآليات التي تسهل الفهم وتكشف عن الممكنات المتضمنة فيه.
- ✓ تحققت نبوءة الشاعر التي قرأناها واستوعبناها من خلال خطابه الشعري، وقد حدث ما استشرفه قبل زمن الوقوع بسنوات، فإن دل هذا على أمر فهو أن الأدب إحساس عميق بالحياة، وأن الأديب بحسه الفني إنسان حادس قادر على استكناه أسرار الوجود.
- ✓ ساهمت الأساليب الفنية المتنوعة بين الاستفهام، الأمر، النداء والتعجب في نقل حيرة الشاعر وقلقه تجاه أهل وطنه وأمته، وهي دعوة ضمنية تحمل وصية الشاعر لأهل عروبته، ومع أن كتابة الموت تحمل في مضمونها بشاعة ومرارة الصورة إلا أنها تتسم بجمالية خاصة تضاهي أو تتجاوز اللوحة الفنية التي يرسمها الرسام بريشته، هي المقدرة الفنية التي تجعل اللغة فاعلة ولو بعد حين.

الهوامش والاحالات

[1] نزار قباني، **قصائد مغضوب عليها**، مكتبة نور، تم الاطلاع عليه في 2025/06/20 على الرابط:
Noor-Book.com نزار قباني قصائد مغضوب عليها pdf. 3

* «**نزار بن توفيق القباني (1923– 1998م)**: سفير وشاعر سوري معاصر، درس الحقوق في الجامعة السورية وبعد تخرجه منها عام 1945 انخرط في السلك الدبلوماسي متنقلا بين عواصم مختلفة ثم استقال منه عام 1966، أصدر أول ديوان له عام 1944 بعنوان(قالت لي السمراء)، وتابع عملية التأليف والنشر حتى بلغت خلال نصف قرن 35 ديوانا، أبرزها(طفولة نهد) و(الرسم

بالكلمات)، وصف بشاعر الحب والمرأة. وقد عاش السنوات الأخيرة من حياته في لندن يكتب الشعر السياسي، ومن قصائده الأخيرة (متى يعلنون وفاة العرب؟) و(أم كلثوم على قائمة التطبيع)، وقد وافته المنية في 30 أبريل 1998، ودفن في مسقط رأسه دمشق». نزار قباني، **الأعمال الكاملة –حبيبتي هي القانون**، دار الخلود للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر، 2013، ص 96.

** «**تسريد narrativisation**: يستخدم هذا المصطلح بالمعنى الذي يفيد إضفاء صبغة سردية على نمط من الخطاب ليس في الأصل كذلك، ومنه الخطاب المسرد أو المروي، وهو الذي تتحول فيه أقوال الشخصية إلى حدث أو عمل يعرضه الراوي مثل سائر الأحداث». محمد القاضي، **معجم السرديات**، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 2010، ص90.

[2] ينظر: عبد الله بوخلخال، **مصطلح السيميائية Sémiotique Sémiologie, في البحث اللساني العربي الحديث، النشأة والمفهوم والتعريب**، السيميائية والنص الأدبي، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، باجي مختار، الجزائر، 17/11 ماي 1995، ص76.

[3] ينظر: نبيلة إبراهيم، **نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة**، مكتبة دار غريب للطباعة، دط، القاهرة، دت، ص40.

[4] فيصل الأحمر، **معجم السيميائيات**، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2010، ص 229.

[5] ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص ص 230-232.

[6] ينظر: لعموري زاوي، **شعرية العتبات النصية**، دار التنوير، ط1، الجزائر، 2013، ص ص 168، 169.

[7] نزار قباني، **قصائد مغضوب عليها**، على الرابط:

Noor-Book.com نزار قباني قصائد مغضوب عليها 3 .pdf

قائمة المصادر والمراجع

1. فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر،2010.
2. لعموري زاوي، شعرية العتبات النصية، دار التنوير، ط1، الجزائر، 2013.
3. محمد القاضي، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 2010.
4. نبيلة إبراهيم، نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، مكتبة دار غريب للطباعة، دط، القاهرة، دت.
5. نزار قباني، الأعمال الكاملة- حبيبتي هي القانون، دار الخلود للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر، 2013.
6. عبد الله بوخلخال، مصطلح السيميائية Sémiotique Sémiologie, في البحث اللساني العربي الحديث، النشأة والمفهوم والتعريب، السيميائية والنص الأدبي، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، باجي مختار، الجزائر، 17/11 ماي 1995.
7. نزار قباني، قصائد مغضوب عليها، مكتبة نور، تم الاطلاع عليه في 2025/06/20 على الرابط:

Noor-Book.com نزار قباني قصائد مغضوب عليها 3 .pdf